القدس في خطاب أحمد حمدي الشعري

الدكتور: عبد الرحمن زايد قيوش. جامعة باجي مختار -عنابة-

Résumé:

Nous avons infusé assister le nom de «elquds» dans un discours Ahmed Hamdi profondément poétique de dimension expressive de valeur. En d'autres termes, que «elquds» dans ce poème est un signe de linguistique varié et sophistiqué d'une étape à l'autre en raison des circonstances entourant les mérites, a pris en conséquence plusieurs connotations résumées.

الملخص:

لقد أكسب حضور اسم "القدس" في خطاب أحمد حمدي الشعري بعدا عميقا منبثقا من القيمة التعبيرية . بمعنى آخر أن "القدس" في هذه القصيدة هي علامة لغوية متلونة ومتطورة من مرحلة إلى أخرى نتيجة للظروف والحيثيات المحيطة بها ، وقد أخذت تبعا لذلك عدة دلالات.

" السيميائية " علم حديث النشأة لم يظهر إلا بعد أن أرسى عالم اللغة السويسري الكبير " دو سوسير " أصول اللسانيات الحديثة في القرن العشرين ، مع الإشارة أنه كانت هناك بعض المحاولات المسبقة لهذا العلم في التراث العربي والغربي .

ويعود الأصل اللغوي لمصطلح « SEMIOTIQUE » إلى العصر اليوناني اذ تعني كلمة « SEMION » علامة ، و « LOGOS » علم .

وعليه ، فالسيميائية أو « السيمياء » هي العلم الذي يدرس حياة العلامات أيا كان مصدرها في إطار الحياة الاجتماعية . وقد جعل « دو سوسير » هذا العلم مقتصرًا على دراسة العلامات في دلالاتها الاجتماعية مما يفهم به البشر بعضهم بعضًا باعتبار اللغة نظامًا من العلامات والرموز و الإشارات .. فالسيميائية علم يعنى بدراسة العلامات اللغوية . وقد تداخل مصطلح « LA SEMIOLOGIE » مع مصطلح آخر هو « LA SEMIOTIQUE » فلا يسه في معناه .

ومصطلح " السيميولوجيا " يستعمله الأوروبيون ، ومصطلح " السيميوتيقا " يستعمله الأمريكيان ... وباختصار فالسيميائية لم تصبح علما قائما بذاته إلا بفضل الجهود التي قدمها كثير من الباحثين والدارسين ، وعلى رأسهم الباحث الأمريكي « بيرس PEIRCE » (1839-1914) فهي في نظره علم الإشارة الذي يشمل جميع العلوم الإنسانية والطبيعية الأخرى يقول : " ليس باستطاعتي أن أدرس أي شيء في الكون ، كالرياضيات والأخلاق والميتافيزياء والجاذبية الأرضية ، والديناميكية الحرارية ، والبصريات ، والكيمياء ، وعلم التشريح المقارن ، وعلم الفلك ، وعلم النفس ، وعلم الصوتيات ، وعلم الاقتصاد ، وتاريخ العلم والكلام والسكوت ، والرجال والنساء ، والنبذ ، وعلم القياس والموازن ، إلا على أنه نظام سيميولوجي " (1) .

ونظرا للثورة المعلوماتية الهائلة التي عرفها القرن 20 و 21 الميلاديين ، فقد ظهرت اتجاهات سيميائية عديدة ، نذكر منها :

- سيميائية التواصل (الوظيفة التواصلية) .

- سيميائية الدلالة ، ولا سيما عند الناقد الفرنسي « رولان بارت » (1915-1985) . ROLAND

(BARTES) الذي يقول بثنائية : الدال / المدلول .

العبرة و المحتوى .

- سيميائية الثقافة (اذ تعد الظواهر الثقافية موضوعات تواصلية) وعلى كل ، فإن السيميائية تعنى بالعلامة اللغوية عناية فائقة ، خاصة لدى أصحاب السيميائية الدلالية ، وبالخصوص عند "رولان بارت". وأن العلامة اللغوية تحمل دلالات مختلفة تفهم بطرائق عدة ، نتيجة كونها تتغير بتغير السياقات والمواقف ، ذلك أن المعرفة السيميائية قائمة على المعرفة اللسانية ، لأن المعاني عند "رولان بارت" لا تتم إلا بواسطة اللغة باعتبارها النسق الذي ينتج عالم المعنى . وقد يسأل سائل : ماهي عناصر النظرية السيميولوجية عند "رولان بارت" من خلال كتابه "درس السيميولوجيا " ؟ نقول : إنها تكمن في أربعة عناصر ، وهي : الدليل ، تعددية المعنى ، السلامة أو موت المؤلف ، واللذة.

1- الدليل : يمكن فهم نظرية النص لدى "بارت" من خلال حديثه عن الدليل . يتجلى ذلك من خلال موازنته بين الأثر والنص الأدبي⁽²⁾ .

ويقول في كتابه " درس السيميولوجيا " :

« يقترب النص من ذاته ويدركها بالمقارنة مع الدليل " SIGNE " أما الأثر فهو ينحصر في مدلول . ومجمل القول فإن الأثر يعمل كدليل عام ... النص تمددي⁽³⁾ . وهذا يعني أن النص يؤول إلى عدة مدلولات "فالتداعي والتجاوز والإحالة هي نوع من الإفصاح عن الطاقة الرمزية التي اذا عوزت الإنسان مات"⁽⁴⁾ . ف "بارت" هنا يشير إلى أن هناك أسرار عميقة تكثف بنية النص ، حيث تضمن له الانفتاحية والتعددية من خلال الحيوية والديناميكية ، وهو يؤكد بصفة أو بأخرى أن " كل المصطلحات السيميولوجية "دليل ، رمز ، أمانة ، علامة ... هي أنها جميعا تحيل بالضرورة على العلاقة بين طرفين متعلقين"⁽⁵⁾ . وفي السيميائية يجب مقارنة الدليل من خلال ما يحيط به ، وليس أبدا من خلال بنائه .

2- تعددية المعنى : يبيّن "بارت" نظريته السيميولوجية على تعددية المعنى في نص واحد . بمعنى أن النص يبقى حيا متوجدا في أي زمان ومكان يصارع الموت ويأبى بذلك الانتحار ، لأن في داخل نسيجه طاقة لا تنفذ . وفي هذا الصدد يقول "بارت" في كتابه "نقد وحقيقة" : "إن النص ليس سطرًا من الكلمات ينتج منه معنى أحادي ، ولكنه فضاء لأبعاد متعددة .. فالنص نسيج لأقوال ناتجة عن ألف بؤرة من بؤرة الثقافة"⁽⁶⁾ .
نفهم من هذا أن "بارت" يؤمن كثيرا بانفتاح النص الأدبي .

3- السلامة أو موت المؤلف : يفتح "بارت" من خلال هذا العنصر المجال للقارئ باعتباره منتجا ومحللا وناقدا " فلم يعد المؤلف في التحليل البارثي يتمتع بالسلطة أو السيادة التي كان يتمتع بها في النقد التقليدي ، بل حل محله القارئ"⁽⁷⁾ . الذي أخذ مقاليد الحكم ، وجلس في مكان القيادة "فموت الكاتب هو الثمن الذي تتطلبه ولادة القراءة"⁽⁸⁾ . وتؤكد أطروحة "بارت" هذه أن سلطة الكاتب تنتهي عند انتهائه من الكتابة . وهذا ما قصده بالكتابة

في درجة الصفر . "والسر من وراء هذا الحجر البارثي لمبدع النص هو الاعتقاد بتفجير الدلالة في لحظة انقطاع النص عن الصورة الحياتية لمؤلفه"⁽⁹⁾ . وهذا ما يؤكد "بارت" ، بقوله: « إن نسبة النص إلى المؤلف معناها إيقاف النص وحصره ، وإعطائه مدلولاً نهائياً . إنها إغلاق الكتابة»⁽¹⁰⁾ .

4- اللذة (لذة النص) : ينصب اهتمام "بارت" على "النص" ، ثم على القارئ . يقول "بارت" : « النص شيء خارق . وهذا الخارق يرغيني . إن النص يختارني عبر شاشات غير مرئية ، ومراوغات انتقائية نحو المفردات ، الاحالات ، المقروئية وغير ذلك»⁽¹¹⁾ .

الخلاصة أن نظرية النص لدى "بارت" تقوم على المبادئ والأسس التالية : الدليل ، تعددية المعنى وتفجيره ، موت المؤلف وميلاد القارئ ، واللذة الناجمة من تفعل القراءة .

وقد أولت هذه النظرية السيميولوجية اهتماما كبيرا بالعلامة اللغوية وتغيير مدلولاتها من حين لآخر .

وضمن هذا الإطار نقف مع الشاعر الجزائري أحمد حمدي⁽¹²⁾ الذي جعل من مدينة "القدس" الفلسطينية، في قصيدته المعنونة بـ "القدس" من ديوانه الشعري الموسوم بـ "انفجارات" علامة لغوية سيميائية ، مع العلم أن العلامة اللغوية ليست مجرد مفردة عادية ، إنما هي وليدة علاقات لامتناهية ، وقد تمثل بؤرة التوتر في القصيدة تبنى عليها باقي المدلولات ، أو ربما تتجمع فيها كل الدلالات والإيحاءات والإيماءات ، فتصبح هي القصيدة مثل مفردة "القدس" في قصيدة شاعرنا " أحمد حمدي " ، التي تحولت إلى علامة لغوية متلونة بلون إيحائي أكثر منه تصريحي وكأما هي ريشة لغوية ترسم لنا عدة مدلولات تتجمع معظمها في بوتقة واحدة ألا وهي "علامة القبلة الأولى" ، ونحن لا نستطيع أن نستغني عن إحدى أهم خامات الرسم ، التي هي الألوان القومية والإسلامية وذلك في استجلاء عوالم المكان "المسجد الأقصى" لأنه هنا حامل لمعنى وحقيقة أبعد من حقيقته الملموسة .

تتغير هذه العلامة اللغوية "القدس" حسب الظروف المحيطة بها ، ذلك لأنها عند الجيل الأول من شعراء الجزائر من أمثال : محمد العيد آل خليفة ، والبشير الإبراهيمي ، ومفدي زكرياء ، فقد اتخذت أبعادا تواكب فيها سيرورة مستجدات القضية في الساحة السياسية والتاريخية ، ولكنها عند الجيل الثاني من شعراء الجزائر ، وعلى رأسه الشاعر أحمد حمدي ، وصالح خرفي (جيل السبعينات) وغيرهم ، تتخذ أبعادا أخرى . فهي حسب المنظور البارثي "رهينة بالاستعمال، وهذا الاستعمال مشروط لحلوقته وأوانه"⁽¹³⁾ . حيث نرى أن الشاعر يقيم مع هذه العلامة -بعد الاستقلال- علاقة حميمة ، إذ يتنفس ، فيكتب بكل أريحية مجسدا آراءه وأفكاره ، وناقلا أحاسيسه وعواطفه ، التي

اجتاحت كل السلاسل والقيود النفسية ، فنجده تارة منكسرا متشائما ، وتارة أخرى منفعلا متفائلا ، وهو في ذلك ينسب العلامة إليه ، وكأنه جزء منها وهي جزء منه* ، فها هو الشاعر يلجأ إلى الطبيعة هروبا من الواقع الأليم والمير الذي تتخبط فيه العلامة اللغوية "القدس" (الظروف المحيطة بفلسطين) أين يتراجع إلى أعماق الذات الضائعة ، التائهة في بحر مدلولاتها ، فيقول :

ذكَرْتُكَ

عند منعطفٍ من الوادي

فجفَّ الحلقُ

وذَكَرْتُكَ لهيبُ القلبِ

قوافلُ أُبْجِمٍ تعدوا⁽¹⁴⁾ .

فالعلامة اللغوية هنا وهي "القدس" تحتل المركز /الثقل/ في القصيدة ، وكأنها الفلك الذي تدور حوله ، فهي ليست مجرد علامة و فقط ، بل هي بحسب المنظور اللساني - الذي تهيمن اللغة فيه على النسيج الخطابي - سلطة طاغية ومتحكمة واستعلائية إذ أنها تمثل الذاكرة التي تؤلم الشاعر ، وتلهب قلبه ، بل هي المرأة التي بهيم الشاعر في حبها ، ويتعذب لبعدها عنه ، لاسيما إذا دخلت عناصر الطبيعة إلى خشبة النص فيقف الشاعر وحيدا إلا من ذكرياته* ، أين تذيب هذه الأخيرة كل المسافات التي تحول بينه وبين العلامة "القدس" إذ يقول :

تُذِيبُ البعدَ

تُشعلُ خافِتي شَعْفًا

فَاه ... فَاه ...

تندفق كل الدوال والمدلولات المساوية عبر الأناة والآهات لتهيمن بعد ذلك علامة "القدس" ، الحاملة معها محتوى الضياع والندم ، فيقول :

أَنْتِ فِي يَدِ الْأَعْدَاءِ

مغلولةٌ

فوا أسفاهُ

أأنتِ في يدِ التتار

مأسورة ؟

فوا أسفاهُ

أأنتِ الآنِ مسيبيَّةٌ

فوا أسفاهُ ؟ (15) .

وهنا تصبح العلامة /القدس/ هي البطلة (المغلولة ، المأسورة ، المسبية) . ثلاثة أدوار في آن واحد تتقمصها في هذه المسرحية التراجيدية ، ولكنه في حقيقة الأمر ليس تقمصا ، وإنما هي الحقيقة المرة التي تعيشها العلامة "القدس" وذلك حين تتخذ هذه الأدوار في مشهد واحد ، مما يضاعف في حجم الذاكرة المرتبطة بها . فيضاعف بذلك حجم القضية وثقل المسؤولية الملقاة على عاتق الشاعر وهنا تنفجر الدلالة العميقة ، باعتبار أي نص -حسب المنظور البارتي- لا يخلو من التناص ، حيث تعتبر هذه المقطوعة الموضوع الذي يتولد المعنى الدلالي للعلامة عندما تنبني وفقها ثنائية (الأسر/السيبي) . تمثل الأولى الماضي /التاريخ القديم/ وذلك حين حصرت العلامة في زاوية واحدة من غير تنفيس على صعيد مدلولاتها ، أين أسرت "القدس" من قبل جيش التتار** لحقبة من الزمن ذاقت فيها القدس والأمة العربية الويلات .

وتمثل الثانية /السيبي/ الحاضر أي /التاريخ الحديث/ وذلك حين مزقت العلامة /القدس/ أشد التمزيق ، وشردت بذلك مدلولاتها أين مُلكت وحُكمت "القدس" القديمة بالغضب والنصب من قبل الاستعمار الحديث (بني صهيون) الذي سبها كما يسيب السيد جاريته . وهنا تظهر المفارقة على مستوى البنية التحتية بين (الأسر والسيبي) عبر التناص التاريخي . فالسجين المحكوم عليه بوضع سنوات ليس كمثله المحكوم عليه بالإعدام . وبهذا فالعلامة هنا اتخذت البعد المأساوي ، الذي يتمثل في الفشل السياسي (نكسة 1967 أين أحس الإنسان العربي بالإحباط والتخاذل) ، فأصبحت العلامة هي النكسة بكل ما يحمله هذا المصطلح من تداعيات وخلفيات ذهنية . وقد انعكس هذا الفشل على التجربة الشعرية للشاعر . ولكن هذا التوتر الرومانسي ، الذي عزف عليه الشاعر /أحمد حمدي/ معزوفة المأساة العربية قد حشد كل معاني التضحية والفداء ، إذ نحس بأن الرومانسية لم تعد مرضا فرديا ، وإنما أصبحت قوة عظيمة في قدرتها على الربط بين الحزن والصلابة ، بين النظر في النكسات والمآسي ، والاستمرار في النضال والكفاح ، فهي

رغم الاستغراق الشديد في بحر الأسي ، ترى بوعي شديد أن هذا الأسي يجب ألا يقف حائلا دون الصمود الدائم ،
فتتحول العلامة /القدس/ إلى هب يقوي من عزيمة الشاعر ، فيقول :

ولكن

إني هبٌ

حذارٍ..حذارٍ

عُيونكِ والدُجى

لهبٌ وأغلالٌ

حصانٌ يحمل الذكرى

إليَّ.. وأنتِ

دامعةُ العيونِ السود

في المنفى (16) .

فقوله : "دامعة العيون السود" دلالة على الأصل العربي العريق . فالعين اذا دمعت شوقا ، فلأنها حرقت من لهيب
ذكرى "القدس" ، بل في سبيل إحياء العلامة بمدلولاتها الموهلة في العمق .

فلا بد للدم العربي أن يصرخ ، أن يتفجر ويحرق التاريخ ليضع بصمته الجديدة عليه ، فيغير بذلك رؤية العالم . يقول
الشاعر :

فاصرخ يا دمي العربي

تفجر

احرق التاريخ

إنَّ القدس فاتنة ومبيّنة (17) .

فالعلامة /القدس/ هنا تأخذ دلالة الانفجار . وهنا نلاحظ وجود تناص داخلي ، باعتبار اسم الديوان " انفجارات " اذ يمثل البؤرة ، وتمثل هي بؤرة البؤرة .

الخلاصة:

لقد أكسب حضور اسم "القدس" في خطاب أحمد حمدي الشعري بعدا عميقا منبثقا من القيمة التعبيرية . بمعنى آخر أن "القدس" في هذه القصيدة هي علامة لغوية متلونة ومتطورة من مرحلة إلى أخرى نتيجة للظروف والحشيات المحيطة بها ، وقد أخذت تبعا لذلك عدة دلالات نجملها في الآتي :

دلالة الثقل في القصيدة الجزائرية الحديثة والمعاصرة ، ودلالة الذاكرة التي تؤلم الآخر ، ودلالة الضياع والندم نتيجة المأساة ودلالة النكسة والفل السياسي (هزيمة الجيوش العربية أمام الجيش الإسرائيلي) ، ودلالة الصمود الدائم (تحول العلامة /القدس/ إلى لب يقوي من عزيمته الشاعر وأبناء الوطن العربي على التضحية والنضال) ، ودلالة على الأصل العربي الأصيل ، وأخيرا دلالة الانفجار في وجه العدو الصهيوني الغاصب .

الهوامش :

- 1- بيرغبرو ، علم الإشارة ، السيميولوجيا . ترجمة منذر عياشي ، دار طلاس ، ط1 ، 1988 من مقدمة مازن الوعر ، ص10 ، 11 .
- 2- على زغينة ، المنهج السيميائي ، خصائصه واتجاهاته . أعمال الملتقى الثاني للسمياء والنص الأدبي ، جامعة محمد خيضر ، بسكرة 2002 ، ص266 .
- 3- رولان بارت ، درس السيميولوجيا ، ترجمة : عبد السلام بن عبد العالي ، تقديم : عبد الفتاح كليطور ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط2 1986 ، ط3 ، 1993 ، ص61 .
- 4- المرجع نفسه ، ص62 .
- 5- مارسيلو داسكال ، الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة ، ترجمة : كوكبة من الأساتذة ، سلسلة البحث السيميائي - افريقيا الشرق ، 1998 ، ص21 .
- 6- رولان بارت ، نقد وحقيقة ، ترجمة : منذر عياشي ، مركز النماء الحضاري ط1 ، 1994 ص40 .
- 7- بشير تاويرث ، ، محاضرات في مناهج النقد الأدبي المعاصر ، ص127 .

8- رولان بارت ، نقد وحقيقة ، ص 25 .

9- المرجع نفسه ، ص 128 .

10- رولان بارت ، درس السيميائية ، ص 86 .

11- ROLAND . BARTES , LE PLAISIR DU TEXTE , EDITION DE SEUIL , 1973 , P39

12- هو أستاذ وباحث أكاديمي ، وكاتب وشاعر ، حاليا عميد كلية الإعلام والتصال بجامعة الجزائر 3 . وُلد يوم 1948/9/9م بالديبيلة ولاية وادي سوف . يعد أحد رواد حركة التجديد في الشعر الجزائري الحديث والمعاصر ، وأبرز ما يعرف بجيل السبعينات في الأدب الجزائري . له عدة مؤلفات في مجالات الشعر والمسح والبحث العلمي الأكاديمي نذكر منها :

- في مجال الشعر: صدرت له الدواوين التالية :

- انفجارات ، ط 1 ، 1977 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر .

- قائمة المغضوب عليهم ، 1980 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر .

- تحرير ما لم يحرق ، 1985 ، المؤسسة الوطنية للكتاب .

- أشهد أنني رأيت ، 2000 ، دار الحكمة للنشر والتوزيع .

- الأعمال الشعرية 1965-2005 منشورات وزارة الثقافة الجزائرية ، 2007 .

- في مجال المسرح : نذكر :

- أبوليوس : مسرحية شعرية ، منشورات الاتحاد العام الأدباء والكتاب العرب ، دمشق /سوريا/ 1990 .

- حصن الاحرار : منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين ، سنة 2003 .

- المقصلة اليومية : منودراما ، مجلة التبيين ، 1992 .

- وقت للضرب ووقت للطرح : نشرت مسلسل بجريدة "الخبر" المصرية سنة 1996 ، القاهرة ، دار مصر المحروسة ، 2007 .

- وفي مجال الدراسات والبحوث : نذكر على سبيل المثال :

- الثورة الجزائرية والإعلام ، ط 1 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1990 .

- دراسات في الصحافة الجزائرية ، دار هومة للنشر والتوزيع ، 2000 م .

- واقع السينما في الجزائر ، ملتقى خاص في المجاهد الأسبوعي ، 1979 .
- ديوان الشعر الشعبي ، شعر الثورة المسلحة ، جمع ودراسة ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، 1994 .
- 13 بشير تاويرت ، محاضرات في مناهج النقد الأدبي المعاصر ، ص 129 .
- *- هذا الانتساب لا يعني أنها ملك له ، يتحكم فيها كيفما يشاء ، بل نقصد أنها تحولت -بفعل اللغة- من الموضوعية إلى الذاتية ، أي أن الذال هنا قد أضيفت له ياء المتكلم "قدسي" .
- 14- أحمد حمدي ، انفجارات -الديوان- ص 55 .
- *- هنا لا بد من الإشارة إلى قضية تأثر الشعراء الجزائريين بالشعراء الرومانسيين .
- 15- أحمد حمدي ، انفجارات -الديوان- ص 56 .
- ** - جيش التتار هو الذي استولى على بيت المقدس ، وكاد أن يستولي على البلاد العربية لولا تدخل رجالها الأوفياء الأتقياء أمثال السلطان "فطرز" الذي كسر شوكتهم فحرر بذلك القدس من الأسر واعتق سبيلها .
- 16- أحمد حمدي -انفجارات- الديوان - ص 56 .
- 17- المصدر نفسه ، ص 57 .